لعبرة فى وفاة الملك

ديمقراطية الموت

للأستاذ محمود غنيم

الموت آية ، ولكن موت الملوك آية كبرى ؛ والموت عظة ، ولكن موت الملوك عظة بالغة

بالأمس تهجم الموت على ذلك الحرم المقدس ، واقتحم أسوار هذا الحصن المنيع الذى تغضى العيون حياء من مهابته ، ولا تلجه الشمس إلا بعد استئذان ؛ اقتحم الموت بلاط ابن اسماعيل ، وحفيد ابراهيم ، والجالس على عرش فرعون ، فلم يحدِّد للزيارة ميعاداً ، أو لم يحدَّد له ميعادٌ ، ولم يلزم الباب حتى يُسمح له بالدخول كما تقضى المراسيم عند زيارة الملوك ، ثم مد يده فى أناة ورفق ، بل فى عنف وقسوة ، فسل روح الملك من جسمه ، كما تُسل كل روح من كل جسم ، ثم انصرف هادئاً مطمئناً ، كأن لم يفعل شيئاً ، فاذا الحرس واجم ، والسلاح كليل ، والطب يطرق حياء ، وجبين العلم يتصبب عرقاً ، وإذا الشرارة تنطلق فى القصر ، فيندلع لهيبها فى مصر ، ويسمع دويُّها فى الخافقين !

يالله ! أيمرض فؤاد كما يمرض أى فرد ممن يظلهم عرش فؤاد ؟ كنا نظن عرشه حمى تتحاماه الأسد ، وتتقيه عوادى الدهر ، فما بال جراثيم المرض تنفذ إلى ذلك الحمى ، وما بال ميكروباته تتسرب إليه ، وما بال أهون خلق الله شأناً يفتك بأعظم خلقه شأناً ؟ حقاً إنه الموت ! ديموقراطى ، لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

فمن كل ما كتب بالفرنسية لا توجد إلا خمسة أو ستة كتب تصلح للطبقات الجاهلة فى المدن والقرى

يعلّمون الشعب القراءة ، ولكنهم لا يضعون له الكتب اللائقة به ، فهم إما أنهم يقدّمون له مؤلفات كتبت لغيره أو أوراقاً محشوة بالنقائص والوقاحة كمن يقدّم سلاحا لطفل ليجرح به نفسه

« العصبة » بتبع

اسكندر كرباج
من العصبة الأندلسية

يمرض الفقير ، فيرى أهله بالتقصير ؛ يقولون : تهاون فاستفحل الداء ، أو أساءوا اختيار الأطباء ، فما بال الملوك يتقلبون على فراش المرض ، ويقاسون ألم النزع ، ويتجرعون كأس الحمام

أيها البرق . توعك مزاج الملك فطير الأنباء . أيتها الطيارات احملى من مختلف الأصقاع نطس الأطباء . أيها العلم هات أحدث ما تمخضت عنه معامل الكيمياء . وأنت أيها الموت مالك جامداً فى مكانك لا تريم ، هلا كففت استخفافاً ، مفتر الثغر عن ابتسامة مروعة ، تسرح طرفك بين هؤلاء وهؤلاء ، فى سخرية واستهزاء ؟

أهكذا يُفعل بالملوك ؟ لك العزاء والسلوة أيها الفقير ! ليس المرض وقفاً عليك ، وليس الموت وقفاً عليك . إنك لا تتعذب وحدك أيها المسكين ، ولكن الملوك أيضاً يتعذبون ! الملوك الذين تنظر اليهم نظرة التقديس ، وتخلع عليهم ثوب الألوهية ، وتنبطهم فى يقظتك ، وتحلم بنعيمهم فى منامك ، والذين تعتبرهم مثلك الأعلى ، وتعتقد أن الخطوب لا ترق إليهم ، وأن لهم عيشاً أنعم من الحرير وألين من الماء : هؤلاء يمرضون أيضاً ويموتون ، ولعلهم فى عيشهم محسودون بما هم منه بائكون !

هذا هو ابن اسماعيل ، وحفيد ابراهيم ، تُستأصل نواجذه بلا مخدر ، فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقا بالحياة ؛ وتُشق لثته ثم تخاط بلا مخدر ، فيحتمل راضياً أو كارها تعلقا بالحياة ؛ ويُحرَّم عليه الأسرة ، فينطرح على كرسيه ثم ينام أو لا ينام ، فيحتمل راضياً أو كارها تعلقا بالحياة ؛ وأخيرا ها هى ذى الحياة ، تتدلل تدلل الهيفاء ، وتجفو فتسرف فى الجفاء . وها هو ذا شبح الموت يقتحم البلاط ، رغم كل احتياط !

ماذا تقول النشرات الطبية ؟ — القيح ! التعفن ! التسمم ! أسماء تتداولها ألسنة العامة ، وكأننا كنا نخالها وقفاً على أبدانهم ، وما كنا نظن أنها تعرف الطريق الى ذوات الملوك ، ذوات الملوك المصونين عن العبث ، الموضوعين فوق القوانين ، الذين لا تنالهم الألسن إلا بالهتاف ، ولا الأفواه إلا باللثم ، ولا تطأ الشفاه أسماؤهم إلا همسا ، ولا تنالهم الأيدى إلا بالسلام ايماءً من بعيد ؛ فى هذه الذوات المقدسة تسرى سموم الموت ، وينشب أظفاره الموت ، والموت ديمقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

« لا أريد أن أموت » هكذا يقول الملك ؛ والملك إذا قال

فكلمته مرسوم نافذ ، واذا أشار فاشارته قانون محترم ، وإذا أوما فايماءته أمر واجب الطاعة ، ولكن الموت — قاتل الله الموت — لا يحسن الخضوع للمراسيم ، ولا يعرف كيف ينفذ القانون ، ولا ينحنى أمام أوامر الملوك

مات الملك فى الشرق وكان ابنه فى الغرب ، وقد فصل القضاء بين الاثنين بحر وبرين ، أليس من حق الراحل أن تكتحل برؤية ابنه عيناه قبل أن يفارق الحياة ؟ أمنية يظفر بها المغمور الصعلوك ، بله الأمراء والملوك ؛ أمنية يظفر بها المحكوم عليه وهو من حبل المشنقة قاب قوسين ، ولكن الملوك يتمنونها فلا يجدون اليها سبيلاً . إيه أيها الموت ! هلا تريثت قليلا حتى يؤوب الغائب ؟ إيه يا جنود سليمان ! هلا حملت النازح البعيد على أجنحتك التى حملت عرش بلقيس ؟ لا هذا ولا ذاك ، إذن فليتعز الراحل العظيم ، بكتاب ابنه الكريم ، ولكن كتاب الولد البار لا يكاد يصل الى الوالد الواقف على حافة الأبدية حتى يغمض الموت أخيرا كما ضن أولا ، وحتى ترتعش اليد رعشة الموت ، فيتدحرج الخطاب ، وينسدل بين البصر وبينه حجاب ، ويلفظ القارىء نفسه الأخير ، ويكون آخر ما قبضت عليه يمينه كتاب ابنه المحبوب ، وآخر ما قاه به اسم ابنه المحبوب ، وآخر ما انطبع فى مخيلته صورة ابنه المحبوب

ها هو ذا الملك مسجى على سرير من ذهب لا يرد اليه الحياة ، مغطى بأكفان من الحرير لا تخفف من خشونة الموت شيئاً ؛ أمامه مباخر من عنبر لا تنفس من سكرة الردى ؛ النعش هو النعش ، حملته الأعناق ، أم جرته الخيول العتاق ؛ والقبر هو القبر من طين وماء ، أو من مرمر ورخام ، فى صحراء جرداء ، أو فى جوف هرم من الاهرام . أطلقوا المدافع ، ونظموا المواكب ، وأعلنوا الحداد ، ونكسوا الأعلام ، فلن تغيروا من حقيقة الموت شيئا . الموت هو هو ، ديموقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

مات الملك فورث ولى عهده تاجا وصولجانا ، ونهراً عذبا ، ومملكة فيحاء ، وأمة مطيعة مخلصة ، ولكنه يجانب ذلك فقد عطف الأب البار ، وحنان الوالد الرحيم ؛ فليت شعرى أخاسرة تلك الصفقة أم رابحة ؟ وأية الكفتين هى الراجحة ؟ ، لست أدرى ، ولكن الذى لاشك فيه أن كل شىء يمضى ويعود ، حتى العروش والتيجان ، ولكن الميت لا يعود ، وأن الملك الجديد لو بذل عرشه فى سبيل نظرة من أبيه أو كلمة يسمعها من فيه ما سمح الموت ، لأن الموت ديموقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ولا يدين بالفروق بين الطبقات

هكذا تتساوى الرؤوس عند الموت بالرؤوس ، أو تتساوى الرؤوس بالأذناب ، كما تساوت الرؤوس بالرؤوس ، أو الرؤوس بالأذناب عند انحدارها من الأصلاب . الكل من التراب ، والكل إلى التراب . ومالى لا أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم لك أن الناس كما يستوون فى طرق الحياة ، يستوون فى الحياة ؛ وأزعم أن فى الحياة نصيباً مشتركا من السعادة ، وآخر من الشقاء ، كل الناس فيهما سواء . وما دام كل إنسان لا يقنع بما هو فيه ، بل يمتد نظره إلى أبعد منه ، ويتمنى على دهره الأمانى ، فيبسط له الدهر إحدى يديه ، ويقبض الأخرى ، فلا يقنع الانسان عند البسط ، ولا ييأس عند القبض ، فهو أبدا آمل ، كادح ، مخفق ، ناجح ؛ أقول مادام أنه لا سبيل إلى الكمال المطلق ، إما لأنه غير موجود ، أو لاستحالة الوصول اليه ، فالناس فى الحقيقة سواء ، وما اختلافهم فى الجاه والمال والمراكز الاجتماعية إلا أمور اعتبارية

لا أستطيع أن أعرف السعادة ما هى ، غير أن الذى لا أشك فيه أنها ليست المال وحده ، وليست الجاه وحده ، وليست الجمال وحده ، قد تكون مزيجاً من ذلك كله ، وقد تكون غير ذلك كله ، وقد يكون الألم جزءاً من ماهية السعادة ، أو شرطا من شروطها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تستطيع أن تضع الفوارق بين السعادة والشقاء ، أو تومئ بأصبعك إلى شخص معين فتقول : هذا شقى ، وإلى سواه ، فتقول : هذا سعيد

أيها الراحل العظيم ، لقد تبوأت سرير الملك
فى ساعة يذر الأسرة نحسها مثل النجوم طوالعاً وأفولا

ولقد خلفت سرير الملك ، وما تزال الجدود عاثرة ، والأسرة متناثرة ؛ ولكنك عشت ملكا ، ومت ملكا . والآن قر فى مضجعك ، فلا قرار مع الحياة ؛ والتمس فى باطن الأرض الراحة التى خانتك على ظهرها . إن للملك لهما ، وإن للشعوب من الأحمال الثقال ، ما تنوء بحمله ظهور الرجال ؛ وإن لك فى جوار ربك لعوضاً أى عوض . أحسن الله عزاءنا فيك ، وبارك لنا فى خلفك المحبوب

كوم حمادة

محمود غنيم